



حرموا الأطفال من حياتهم الطبيعية عاش "المخصيون" مع حریم السلطان بالإهانة والانتقاص

تفنن العثمانيون في تعدد مؤسسات العبودية، وكانت طبقة الإنكشارية العسكرية إحدى أكثر الطبقات عُمقًا وحرصًا من العثمانيين على دعمها ووجودها داعمًا مهمًا للرق، وتأخذهم الدولة باعتبارهم ضريبة في الغالب من الأسر غير المسلمة في أوروبا بأعمار تتراوح بين 7- 14 سنة، بحيث يتم إدراجهم وتدريبهم على الجندية بكل احترافية.

اتفق مؤرخون كثر على أن الإنكشارية مجموعة من الشباب والفتيان والمشردين والأيتام والأسرى المسيحيين، قامت الدولة العثمانية بتبنيهم والاستفادة منهم، وتربيتهم على أسس دينية إسلامية، على أن يشعروا بأن السلطان سيدهم وبأنهم عبيد له، وتتم تغذية الفرق الإنكشارية بما عُرف بضريبة الغلمان، إذ أصدر العثمانيون قانونًا يتم بموجبه أخذ خُمس أطفال كل مدينة محتلة وضمهم إلى الجيش العثماني بغير وجه حق شرعي في الإسلام.

عارضوا عتق الإسلام بتقنين
استعباد الأطفال دوريًا.

فمارست الدولة العثمانية الأعمال اللاأخلاقية في استعباد الناس وحرمان الأطفال من أبسط حقوقهم؛ أن ينعموا في كنف آبائهم وأمهاتهم، وهذا من أشنع الجرائم الإنسانية، حين اعتبر الجيش الإنكشاري هؤلاء الأطفال من أسرى الحرب التي خاضوها مع الدولة البيزنطية والممالك النصرانية في أوروبا الشرقية، بل تطور الأمر إلى أخذ الغلمان عنوة ليكونوا ضريبة دورية تأخذها الدولة من النصارى في أوروبا الشرقية، وأطلقت عليها ضريبة الديوشيرمة.

هذه الضريبة تعدّ جريمة في حق الإنسانية، ودليلًا يضاف إلى حقائق التاريخ على أن العثمانيين مهمًا تلبسوا بجلباب الإسلام إلا أن لهم تاريخًا أسود لا يمكن للبشرية أن تنساه، فإذا كان رسول السلام محمد صلى الله عليه وسلم استنكر على واحد من صحابته في قصة الخُمرة "من فجّع هذه بولدها... ردوا إليها ولدها"، وإذا كان لطائر صغير حق العاطفة والاجتماع، فما بال الإنسان الذي خلقه الله ليكون حُرًا كريّمًا، ليعيش عزيزًا لا يرضى الظلم ولا الخنوع.

أما الأعوات فقد أخذت الدولة العثمانية بنظام الخصاء ضدّهم في قصور السلاطين، على الرغم من أن الشريعة الإسلامية تحرّم مبدأ الخصاء، وكان أخذ الدولة بهذا النظام غير الشرعي من الحالات التي خرجت فيها على الشريعة الإسلامية، فالنبي الكريم صلى الله عليه وسلم حرّم إخصاء البشر، فقال: "لا إخصاء في الإسلام"، صححه الألباني.

ولم يكتف العثمانيون بمن أخصوهم من الرجال، بل كانوا يشترون العبيد الخصيان من خارج حدود الدولة حيث تكون عملية الإخصاء قد أُجريت للعبد في صغره ليتم بيعه في سوق النخاسة إلى الملوك والأمراء؛ حيث كان إخصاء العبيد وبيعهم للخدمة في قصور ملوك الدول المختلفة تجارة رائجة، وطائفتان من الخصيان: الخصيان السود وهم المخصيون خصاءً كاملًا، والخصيان البيض وهم المخصيون خصاءً جزئيًا، وكان يُطلق على رئيسهم (قبو آغاسي)، بينما كان يُطلق على رئيس الخصيان السود، الذي هو في الوقت نفسه الرئيس الأعلى في القصور السلطانية، (قيزلر آغاسي)، أي (آغا البنات)، و(آغا دار السعادة)، ووضعت الدولة أنظمة خاصة تُطبق على خدمتهم في القصور السلطانية.

وتعدّ فكرة الخصاء فكرة خبيثة، لما فيها من الاستعباد والقهر، ولو كان من مساوئ العثمانيين الإخصاء فقط؛ لكان كافيًا لإدانتهم بالانتهاك البشع لحقوق الإنسان واستعبادهم، فعملية الخصاء التي كانوا يقومون بها، ونظرتهم تجاه الرجل والمرأة، تدل على ما بداخلهم من عُقد ومشكلات، وتكشف عن الخوف الذي يملكهم على نساءهم من الرجال القائمين على خدمة قصورهم، فقد حكم العثمانيون بالمؤامرة، وتسيّدوا بالتخلف وكانت المرأة لعبتهم، والذهب هو هدفهم الأخير من وراء كافة الولايات والدول التي وضعوا أيديهم عليها.

وطُبق الإخصاء كعقاب على جنود الإنكشارية، الذين يخرجون عن الانضباط العسكري، فإذا تكرر من الإنكشاري أعمال مسيئة، يعاقب عليها القانون، وينفذ به حكم الخصي، وكان أعا الإنكشارية هو من يأمر بذلك، وهي عقوبة كبيرة وقاسية لأن من نفذ في حقه هذه العقوبة سيفقد رجولته، وتؤهله للعمل داخل قصور الحریم.

حرموا "المخصين"
من فطرتهم وحقهم
في بناء أسرة.

فكانت البيئة النسوية تطفح بالمؤامرات والدسائس، وعاش هؤلاء المخصيون في قصور الحریم السلطانية، وكانت لفظة (الحریم) -المتداولة في عصور الظلام العثمانية- توحى بالسلط النسوي على السلاطين والأمراء من بني عثمان، فكانت النساء في قصورهم الشغل الشاغل، وكُنّ يمارسن الدور الخفي للسياسة العثمانية، فالصراع بين حریم القصور يزيد من الجو التسلطي السائد، حتى فاضت قصص غابة في الغرابة حول هذا الصراع وما رافقه من الدسائس والمؤامرات التي تُحاك في القصور العثمانية، ولو كانت الجدران تحكي ما كان يحدث بهذه القصور من فجور وانحلال لحكت فطائع وأهوال وروايات.

عاش المخصيون عند الحریم اللاتي لا يكثرن بإهانتهم والانتقاص من كرامتهم وحریتهم، عاشوا محرومين من فطرتهم السوية التي خلقها الله لهم، كما حُرّموا بسبب الإخصاء- الأبوة الحقيقية والحق في أن يكون لهم أولاد من أصلابهم تقرّ بهم أعينهم، ويكونون لهم السند والعون عند الكبر.

(1) إبراهيم شعبان، الدولة العثمانية.. 6 قرون إرهاب وإخصاء وحریم، (مقال بصحيفة صدى البلد، السبت 7 سبتمبر 2019).

(2) حسن الضيقة، دولة محمد علي والغرب، الاستحواذ والاستقلال (بيروت: المركز العربي الثقافي، 1997).

(3) طلال الطريفي، العثمانيون ما كان حديثا يفترى، 4ط (الرياض: دار اثنا، 2020).

(4) محمد مروان، "الإنكشارية قوة الدولة العثمانية وضعفها"، (ليبيا: المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، مج2، 8ع، يونيو 2017).

(5) محمد ناصر الدين الألباني، صحيح وضعيف الجامع (بيروت: المكتب الإسلامي 1988هـ)، 2: 118.